تدبر سورة الحج

سورة الحج

مدنية، وعدد آياتها ثمان وسبعون. وقد ورد نداء واحد للمؤمنين في آخرها. ومن آخر التوبة إلى آخر سورة الحج؛لم يأت نداءٌ للمؤمنين خلال هذه السور؛ لأنها مكية. ويرى بعض العلماء: أن سورة الحج مكية، وسميت سورة الحج بهذا الاسم تخليدًا لدعوة الخليل - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى في الناس: «**إن الله قد بنى لكم بيتًا فحجوه**» فسمع نداءه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء: «**لبيك اللهم لبيك**» [(١)].

نداء المؤمنين في هذه السورة :

يقول الله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[الحج :٧٧، ٧٨].

صلة الآيتين بما قبلهما :

لما ذكر الحق ﷻ أنه يصطفي من خلقه من يشاء لحمل رسالته فقال :﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾[الحج :٧٥، ٧٦]، وفي هذا النص الكريم: أمر المؤمنين بالطاعة المطلقة ليكونوا قدوة في حملهم لهذه الرسالة ويتحقق فلاحهم في الدارين فقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا... ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ ارْكَعُوا ﴾ انقادوا لمن يملك النفع والضر وهو رب العالمين ﴿ مَا يَفْتَحِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عباس، تفسير آيات الأحكام (٦٧/٢).

اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ومَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [فاطر :٢].

﴿ وَاسْجُدُوا ﴾ أي: تذللوا لمن نواصيكم بيده، فالسجود أعلى مظاهر التذلل للحي القيوم.

﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح هو: الفوز بنيل المطلوب وهو: هناءة العيش في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة، وهو الفوز الحقيقي كما قال - تعالى - :﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران :١٨٥].

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ الجهاد هو: بذل الجهد واستفراغ الوسع في سبيل مرضاة الله - تعالى - ونصرة دينه.

﴿ اجْتَبَاكُمْ ﴾ : أي: اختاركم واصطفاكم لهذه المهمة العظيمة، قال - تعالى -: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... ﴾ .

﴿ حَرَجٍ ﴾: الحرج: هو الضيق الذي لا يطاق، أو: العنت والمشقة.

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ : أي: الزموا ملة أبيكم، وسيروا على نهجها، والملة بمعنى: الدين أو: الشريعة، فرفع الحرج الذي امتن الله به على هذه الأمة، كان في ملة إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -.

﴿ شَهِيدًا ﴾ أي: أن الرسول ﷺ يشهد على أمته بأنه قد بلغها ما أمر بتبليغه.

﴿ شُهَدَاءَ ﴾ أي: أن الأمة المحمدية تشهد على الأمم السابقة: بأن رسلهم قد بلغوهم رسالات ربّهم ﷻ .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ : الاعتصام بالله: أي اللجوء إليه في كل حال، والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه.

﴿ هُوَ مَوْلاكُمْ ﴾ : المولى يطلق على معانٍ منها: المالك والناصر، والمعتق، والسيد، والجار، وابن العم، والحليف، ويُحدد كل معنى على حدة

حسب السياق الذي وردت فيه الكلمة [١].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: خُصَّ المؤمنون بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بهذه الأوامر، ومن عداهم من المعرضين بمثابة الموتى، قال - تعالى - :﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر :٢٢].

الثانية: صاغ الفلاح بأسلوب الرجاء فقال :﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، حتى لا يقطع أحد بنجاته، فالأعمال بالخواتيم، والقلب دائمًا في تقلب. كما أنه لم يجزم بالفلاح حتى لا يغتر عامل بعمله، فالمخلوق وما يعمل.. بفضل الله - تعالى - وليس بفضل المخلوق.

الثالثة: في قوله - تعالى -: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ.. ﴾ مجاز بالحذف، والتقدير: وجاهدوا في سبيل الله طلبًا لمرضاته وثوابه... وهذا كقوله - جل شأنه -: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف :٨٢].

الرابعة: في مجيء الدين معرفة بالألف واللام التي تفيد العهد، تشير إلى أن الدين واحد عند جميع الأنبياء... قال - تعالى - :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران :٨٥]. وأن المختلف فيه هو: الشرائع، فكل شريعة تأتي مناسبة للأمة التي وجُهت إليها.

الخامسة: كلمة ﴿ حَرَجٍ ﴾ نكرة، تفيد التقليل، ومعنى هذا: أن الله ﷻ أكرم هذه الأمة برفع الحرج عنها ولو كان قليلاً، فرفع الحرج الكثير من باب أولى وذلك إكرام لنبي هذه الأمة - صلوات الله وسلامه عليه -.

السادسة: في تعريف الرسول بـ (ال) التي تفيد العهد، إشارة إلى أنه محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء، ولا نبي بعده، ولو كان هناك نبي بعده لكان هو الشهيد عليهم وعلى مَنْ بعدهم من ذرياتهم.

---

(١) راجع هذه المواد اللغوية في لسان العرب .

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: مَنْ المخاطب بهذه الأوامر ؟

ذهب بعض العلماء: إلى أن الأمر بالركوع والسجود وعبادة الله وفعل الخيرات موجه إلى الناس جميعًا، إذْ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، غير أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمنين؛ لمزيد الاعتناء بهم، والتشريف لهم؛ ولأنّهم هم المنتفعون بهذه الأوامر [١].

وذهب آخرون: إلى أن الأوامر موجهة إلى المؤمنين، كما أن الخطاب خاص بهم أما غير المسلمين فإنّهم لما أعرضوا عن قبول عن دين الله، ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ أعرض الله عنهم، وصرف خطابه وأوامره إلى أهل طاعته الذين يعرفون حقه ويمتثلون أحكامه. أما أولئك الكفار، فإنّهم لا ينفع فيهم إرشاد، ولا يُرجى منهم قبول ولا امتثال فهم جديرون بالترك والإهدار. وهذا المعنى: أحسن وأوجه، وهو سائر حتى مع القول بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، ومتفق مع ما جاء في الآية الآتية: من اجتباء المخاطبين وتسميتهم بالمسلمين، وإعلاء شأنهم بقبول شهادتِهم على الأمم يوم القيامة [٢]. **والقول الأول: هو الراجح**

الحكم الثاني: ما المراد بالركوع والسجود في الآية ؟

يرى الأحناف أن المراد بالركوع والسجود في الآية: الصلاة، فالأمر بهما أمر بالصلاة، وإنما عبر عن الصلاة بهما؛ لأنّهما أهم أركانِها وأفضلها. **وقيل**: المراد معناهما الشرعي المعروف. وقد أمر بهما؛ لأن الناس في أول الإسلام كانوا يصلون تارة بغير ركوع، وتارة بغير سجود، فالله أمرهم بإتمام الصلاة والإتيان فيها بالركوع والسجود.

وقال الشافعية: إن الركوع مجاز عن الصلاة لاختصاصه بها. أما السجود، فالمراد به: سجود التلاوة. **والعبادة**: هي كل فعل تتجلى فيه

---

(١) تفسير آيات الأحكام للشيخ السايس (٩٢/٣).

(٢) المرجع السابق (٩٢/٣).

الذلة والاستكانة تحت قهر الإله وسلطانه، وعلى هذا قيل: إن المراد بها: التكاليف التي تربط العبد بربه، فهي أعمّ مما قبلها.

أما فعل الخيرات فهو عام للتكاليف جميعًا، يشمل ما يصلح علاقة العبد بالرب، وما يصلح علاقات الناس بعضهم مع بعض، فأنت تجد هذه العبادات مرتبة. بُدئ فيها بعبادة خاصة وهي الصلاة ثم ثنى بما هو أعم منها وهو جميع العبادات ثم أتبع بما هو أعم من الكل وهو فعل الخيرات الشامل للعبادات وللإحسان في المعاملات وبعضهم حمل العبادة على الفرائض، وفعل الخير على النوافل [1].

الحكم الثالث: هل الآية دليل على سجود التلاوة ؟

ذهب جمع من العلماء إلى أن الآية من الآيات الدالة على سجود التلاوة، ومنهم: علي، وعمر، وعبد الله بن عمر، وعثمان، وأبو الدرداء، وابن عباس... في إحدى الروايتين عنه، وبه أخذ الإمام الشافعي وأحمد والليث وابن وهب وابن حبيب من المالكية - رحمهم الله - واستدلوا على ذلك بما يلي :

١ - أن السجود حقيقة في المعنى المعروف: (**وضع الجبهة على الأرض**) فمتى أمكن حمل اللفظ عليه، فلا يصح العدول عنه إلا لموجب وهو غير موجود في الآية.

٢ - وقد ورد في السنة ما يؤيد هذا المعنى ويكشف عن المراد بالسجود في الآية: فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال: «**نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقراهما**» [2].

---

(١) تفسير آيات الأحكام (٢/٩٣).

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود: كتاب: الصلاة، باب: باب، حديث (١٤٠٢)، والترمذي، حديث (٥٧٨)، وأحمد في مسنده (٤/١٥١). وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي. وانظر: تفسير القرآن العظيم (٤/٦٢٤).

٣ - وأخرج أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن: منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان [١].

وقال أبو حنيفة، ومالك والحسن، وابن المسيب، وابن جبير، وسفيان الثوري – عليهم رحمة الله- : إن هذه الآية ليست آية سجدة، واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١ - إن اقتران السجود بالركوع دليل على أن المراد به: سجود الصلاة، كما في قوله - تعالى -: ﴿واسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران :١٤٣]. فإذا لم يكن هذا الاقتران موجبًا؛ لحمل السجود على سجود الصلاة، وأنه عبَّر عن الصلاة بمجموع الأمرين، فلا أقل من أن يكون مرجحًا لذلك، فلا يصح أن يؤخذ من الآية أن السجود فيها: سجود التلاوة.

٢ - ما روي عن أُبيّ رضي الله عنه أنه عَد السجدات التي سمعها عن رسول الله ﷺ وعدَّ في الحج سجدة واحدة [٢].

٣ - ما روى عن ابن عباس وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنّهما قالا: سجدة التلاوة في الحج: هي الأولى، والثانية: سجدة الصلاة. قالوا: وهذا المروي عن ابن عباس وابن عمر هو تأويل ما روي عن عقبة ابن عامر على فرض صحته، مع أن فيه مقالاً، إذ قال الترمذي وأبو داود وغيرهما: إن إسناده ليس بالقوى؛ لأن فيه عبد الله بن لهيعة. وحديث عمرو بن العاص: ضعيف؛ لأن في سنده: عبد الله بن منين الذي قال فيه ابن القطان: إنه مجهول، وقال غيره: لا يحتج به. والاحتياط في الدين واجب، وعلى هذا فالقول الأول أصح. ولو كانت أحاديثه ضعيفة فإنها

---

(١) **ضعيف:** رواه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: باب، حديث (١٤٠١)، وابن ماجه، حديث (١٠٥٧)، والحاكم في المستدرك (٢٤٥/١)، حديث (٨١١) . وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود . وانظر: تفسير آيات الأحكام (٩٤/٣) .

(٢) تفسير آيات الأحكام (٩٤/٣) .

ترقى إلى مرتبة الحسن لغيره، والله أعلم [١].

الحكم الرابع: في أنواع الجهاد :

الجهاد هو بذل الطاقة واستفراغ الوسع في مدافعة العدو، وهو قسمان عظيمان، تحت كل منهما أنواع، فالقسم الأول: جهاد العدو والباطن، وتحته نوعان :

١ - جهاد النفس ٢ - جهاد الشيطان.

فجهاد النفس: بمخالفة هوى النفس، وحملها على الطاعات، وترك المخالفات.

وجهاد الشيطان: بمدافعة وساوسه، وعدم الاستجابة لكيده وتزيينه... وقد جاء عن النبي ﷺ أنه لما رجع من غزوة تبوك قال: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» وهو جهاد النفس وعدم الاغترار بوساوس الشيطان. قال- تعالى-: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف :٥٣]، وقال - عز شأنه - : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر :٦].

والقسم الثاني: جهاد العدو الظاهر، وتحته ثلاث أنواع :

١ - جهاد الكفار ٢ - جهاد المنافقين ٣ - جهاد أهل الظلم والبدع والضلالات الاعتقادية والعملية.. فجهاد الكفار والمنافقين، ورد الأمر به في قوله - تعالى - :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة :٧٣، التحريم :٩] وكذلك جهاد أهل الظلم والضلال والبدع، كُلٌّ على حسب استعداده وبقدر استطاعته، كما قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» [٢].

وهذا النوع من الجهاد: فرض كفاية على الأمة، يتصدى له أهل

---

(١) تفسير آيات الأحكام (٣/٩٥).

(٢) سبق تخريجه.

القدرة عليه من العلماء الواقفين على أسرار الشريعة، العارفين بمسالك القول وطرائق الإقناع.

وقد شرع القتال بالسيف ونحوه في سبيل الله - تعالى - بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وهو في الأصل فرض كفاية على المسلمين، يجزئ فيه أن يقوم به بعضهم، متى كانوا قادرين على أن يصدوا غارات العدو وأن يدفعوه عن بقية المسلمين وبلادهم. وإلا فعلى حسب ما يرى الإمام، حتى لو أعلن النفير العام، كان فرض عين على كل واحد من القادرين على القتال [١].

الحكم الخامس: ما المراد بالجهاد في الآية ؟

ذهب ابن عباس والضحاك - رضي الله عنهما - أن المراد به: قتال الكفار والمشركين، وكأنهما استنبطا هذا القول من ظاهر قوله - تعالى - :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. وذهب عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - إلى أن المراد به: مخالفة النفس والهوى. والأولى: أن يحمل على المعنى العام الذي يشمل هذا وذاك [٢].

الحكم السادس: هل الآية منسوخة ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية محكمة وليست منسوخة، وإذا كانت السورة مكية - كما يرى البعض - فإن تعرض القرآن للإخبار عن الجهاد قبل مشروعيته يُعد من قبيل: الإنباء بالغيب، وهو دليل من أدلة الإعجاز القرآني. وقد ذهب مجاهد والكلبي إلى أن الآية منسوخة بقول الله - تعالى - :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن :١٦]؛ لأن حق الجهاد غاية لا يستطيعها عامة المكلفين، فإنها قد تتجاوز الوسع وحد الاستطاعة والأصوب القول الأول؛ لأنه إذا أمكن الجمع بين الآيتين لا

---

(١) تفسير آيات الأحكام (٣/٩٦).

(٢) تفسير آيات الأحكام (٣/٩٦).

يُصار إلى القول بالنسخ [١].

الحكم السابع: في توافق آيات القرآن :

بعض آيات القرآن: توهم التعارض، والحق أن القرآن لا يعارض بعضه بعضًا.. قال الله ﷻ :﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء :٨٢]. وقد أخبر الرسول ﷺ بأن كل نبي من الأنبياء والمرسلين السابقين كانت رسالته خاصة «**أُعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي... وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**» [٢]. والقرآن يقول :﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ... ﴾ [الحج :٧٨]. فكأن رسالة إبراهيم عليه السلام كانت عامة ومن أجل هذا، أُمر الرسول ﷺ بإتباعها.

والحق - الذي لا مرية فيه - أن رسالة إبراهيم عليه السلام كانت خاصة، ورسالة محمد ﷺ كانت عامة، ووجه الاتفاق بين الرسالتين في القضايا العقدية.

كما قال - تعالى - :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر :٦٥، ٦٦]. وقال ﷻ :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء :٢٥]. أما القضايا الشرعية فبينهما اختلاف، فشريعة إبراهيم - عليه السلام - كانت خاصة، وشريعة محمد ﷺ كانت عامة.. قال - سبحانه وتعالى - :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء :١٠٧]. وقوله - جل وعلا -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ :٢٨].

المعنى العام :

يأمر - تعالى - عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع

---

(١) تفسير آيات الأحكام للشيخ السايس (٣/٩٦، ٩٧).

(٢) سبق تخريجه.

والسجود؛ لأنّهما ركنا الصلاة البارزان، وأفضل الأركان على الإطلاق، ويُثنى بالأمر بالعبادة، وهي أشمل من الصلاة. فعبادة الله تشمل الفرائض كلها، وتزيد كذلك كل عمل يتوجه به المرء إلى ربه - سبحانه وتعالى -.

فكل نشاط في الحياة يمكن أن يحوله الإنسان إلى عبادة، متى توجه القلب به إلى الله - تعالى - حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة، بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات. فليس الأمر عبادة داخل مسجد، بل عبادة في كل مكان... ما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته، كل هذا في العبادات علاقته بربه.

﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ ويختم بفعل الخير عامة في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة. وفعل الخير: كل ما يقرب إلى الله، كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والصلاة وقيام الليل، وإغاثة المحتاج، وعيادة المريض . فالخير: أبوابه كثيرة، وكلها من محابّ الله - تعالى -: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة :١٩٥].

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقد علق - سبحانه وتعالى - الفلاح على هذه الأمور، فهي أسبابه..

العبادة: صلة بالله ، وفعل الخير: استقامة الحياة، وإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن وفق لهذا فله السعادة والنجاح والفلاح.

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ هذا تعبير شامل جامع، فالجهاد: بذل الوسع في الحصول على الغرض المطلوب. والجهاد في الله حق جهاده: هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله، بكل طريق موصل إلى ذلك: من نصيحة وتعليم، وقتال وأدب، وزجر ووعظ وغير ذلك.. كما قال - تعالى - : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران :١٠٢].

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أي: اختاركم - يا معشر المسلمين - من بين الناس، واختار لكم دينكم، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب، وأفضل الرسل.

يقول الدكتور / مصطفى السباعي رحمه الله :

رسول الله والأنبياء:

لئن شق موسى بحرًا من الماء فانحسر عن رمل وحصى !!! فقد شق محمد ﷺ بحورًا من النفوس فانحسرت عن عظماء خالدين !!!.

ولئن رَدَّ الله ليوشع شمسًا غابت بعد لحظات !! فقد ردَّ الله بمحمد ﷺ إلى الدنيا شمسًا لا تغيب مدى الحياة !!!. ولئن أحيا عيسى الموتى - بإذن الله - ثم ماتوا !! فقد أحيا محمد - بمشيئة الله - أممًا ثم لم تمت !!!.

فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق جهاده.

ولما كان قوله :﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق أو يشق، احترز منه بقوله :﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسر غاية التيسير، وسهل غاية السهولة، فما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**» [1].

إنه تكليف محفوف برحمة الله...

إذ عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر، إما بإسقاطه أو إسقاط بعضه كما بينا في سورة المائدة في قوله - تعالى - : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة :٦). ويؤخذ من هذه الآية: قاعدة شرعية وهي: (أن المشقة تجلب التيسيرا)، (الضرورات تبيح المحظورات)، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية كثير معروف في كتب الأحكام، منها: الرخصة في التيمم،

(١) سبق تخريجه .

الإفطار للمسافر، قصر الصلاة وجمعها، أكل الميتة في قوله - تعالى -: ﴿ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾[الأنعام :١١٩] وغيرها كثير.. أهذه واجبات ثقيلة ؟!! ما يستثقلها إلا قليل الحياء.

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو منبع التوحيد، ملة أبيكم إبراهيم التي ما زال عليها فالزموها واستمسكوا بها. كما قال - تعالى - :﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾[الأنعام :١٦١].

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: في الكتب السابقة أنتم مذكورون ومشهورون بأن إبراهيم سماكم مسلمين.

﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أي: في هذا الكتاب، وهذا الشرع، أي: ما زال هذا الاسم لكم قديمًا وحديثًا. والاسم: هو إسلام الوجه والقلب له وحده بلا شريك.

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا عدلاً خيارًا.. تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله في كتابه يقول داعية العصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: عندما نتدبر رسالة الإنسان -كما وصفها القرآن الكريم - نعرف درجة الرفعة المنشودة له....

إن الله لم ينفخ من روحه - في الكيان الآدمي -؛ ليكون الإنسان سبعًا ضاريًا بل ليرشحه لما كان كريمًا.

قد رشحوك لأمرٍ لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل [1]

ما الذي قاله مستمعو القرآن عندما قرع القرآن الكريم آذانهم ؟ قالوا :﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[آل عمران :١٩٣]. وما الذي طلبه مبلغ القرآن ممن صدقوه وآزروه ؟ طلب منهم أن يدعوا الله له أن يتقبل جهاده، وأن

(١) التفسير الموضوعي للشيخ / محمد الغزالي .

يبعثه في الآخرة مقامًا محمودًا !!!

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ بأركانها، وشروطها، وحدودها، وجميع لوازمها. فالصلاة صلة العبد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد.

﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة لمستحقيها شكرًا لله على ما أولاكم، والزكاة صلة بين الجماعة بعضها ببعض.

يقول الشيخ الغزالي - رحمه الله تعالى - :

الحضارة المعاصرة نحيفة الخلق، رأينا العالم الأول والثاني يقرضان الشعب البائس في العالم الثالث على النحو التالي:

عليك ألف، منها ثلاثمائة سلع من إنتاجنا، أنت محتاج إليها في مشروعات التنمية، وثلاثمائة أخرى: أجر مهندسين وعاملين يشرفون على الآلات، ويديرون المشروعات، وبقية القرض للنفقات المرتقبة. وعليك أن تدفع ١٥ ٪ فائدة سنوية للمبلغ كله.

وبعد سبع سنين، يكون المدين البائس قد أدى أكثر مما أخذ، والدين كله باق عليه لم ينقص منه شيء. أما الدائن فقد باع سلعه، وشغل أولاده، وبقى ممسكًا بعنق المدين يطلب الوفاء.

إن المدنية الحديثة غليظة نحيفة الخلق. والويل لمن استكان لها، ولم يتحرز من مؤامراتها.

وظاهر الفكر اليهودي وراء هذه السيرة الوضيعة. والمؤسف: أن ساسة الغرب فقدوا كل حصانة دينية لمقاومة سياسة الربا.

أما الإسلام فرحمة بالمعسرين....

عن حذيفة ﷺ قال: **أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا فعلت في الدنيا ؟ قال: - ولا يكتمون الله حديثًا- يا رب آتيتني مالاً، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجود، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، فقال الله - تعالى -: انا أحق بذلك منك !! تجاوزوا عن عبدي**». فقال عقبة بن عامر،

وأبو مسعود الأنصاري: هكذا سمعناه من في رسول الله ﷺ [١]. وعن أسعد بن زرارة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليسر على معسر أو ليضع عنه**» [٢].

وفي الإسلام جملة من الآثار تنصح بالرحمة، وتعزى الواجد بالسماح إذا رأى معسرًا ضاقت به الأرض !!!!.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ : الاعتصام بالله: هو العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد. استعينوا به وتوكلوا عليه، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم.

﴿ هُوَ مَوْلاكُمْ ﴾ الذي يتولى أموركم فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره. ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى ﴾ : نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله.

وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي هي مصادر القوة في الأرض، فيوجهون بها الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء. وإذا كانت الطواغيت قد استذلت الناس قرونًا، فإن أُمتنا مكلفة بمجاهدة الطواغيت حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله :﴿ ... وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ... ﴾ فهل وعى المسلمون هذه الرسالة ؟ [٣].

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب: المساقاة، باب: فضل إنظار المعسر، حديث (١٥٦٠).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب: إنظار المعسر، حديث (٢٤١٩)، وأحمد في مسنده (٤٢٧/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٧/٩)، حديث (١٠٩١٧) . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه .

(٣) التفسير الموضوعي للشيخ الغزالي - رحمه الله - (ص ٢٦٦) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١ - الصلاة من أهم شعب الإيمان، والقيام بها من عزائم الأمور.

٢ - الفلاح في الدارين مرتبط بطاعة الله ورسوله ﷺ.

٣ - الجهاد بشتى صوره مشروع، وماض إلى يوم القيامة.

٤ - أكرم الله ﷻ هذه الأمة بمنح كثيرة، من أبرزها: رفع الحرج.

٥ - هذه الأمة متفقة مع الأمم السابقة في الأصول العقدية.

٦ - الرسول ﷺ يشهد على أمته بالبلاغ المبين، والأمة تشهد على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلغوهم ما يجب تبليغه.

٧ - الله ﷻ يتولى خلقه، وينصر المؤمنين على من عاداهم.

* * *